الفصل الثاني عشر

دراسة في سيكولوجية رجال الدين الجُدد

رجال دين أم حفنة من النصابين والفاشلين

هناك ملاحظة ربما لم ينتبه لها البعض وهي: أن الأجيال الجديدة، أجيال ما بعد ثمانينات القرن الماضي من رجال الدين من الطائفتين الشيعة والسُنَّة هم عادة من الطلاب الفاشلين في دراساتهم ومحدودي الذكاء، وبعضهم من أبناء الشوارع الذين قضوا طفولتهم ومراهقتهم على هامش الحياة يتنقلون بين أعمال وأفعال ومهن متواضعة أو من تلك التي تتميز باعتمادها على الشطارة والفهلوة واستغلال طيبة الآخرين لبيعهم بضائع سيئة بأغلى الأسعار، أو عمال (صناع) في محلات الآخرين.

هم ليسوا مما نعرفهم من رجال الذين عهدناهم خلال الفترات السابقة بما يتميزون به من زهد وتقوى وورع، وتمسك بالأخلاق ومراعات للآداب العامة.. بالنسبة لرجال الدين الشيعة في العراق ومنذ الحرب العراقية الإيرانية، نجد أن غالبيتهم من الجنود المتهربين من الخدمة العسكرية، فالنظام السائد في العراق وإلى يوم الاحتلال، إن الطالب الفاشل في الدراسة الابتدائية أو حتى الثانوية العامة يخضع لقانون الخدمة العسكرية الإلزامية عند بلوغه الـ ١٨ سنة، وبعد أن استنزف الكثير منهم كل أساليب التحايل على القانون، بدعوى العجز وحتى الجنون، أو غيرها من الأساليب الأخرى اكتشف بعضهم أن التسجيل في المدارس الدينية يؤجل خدمتهم العسكرية فتهافتوا على تلك المدارس، لا إيماناً ولا رغبة في تعلم الفقه بل كهروب من الواجب الوطني.. أي أن كل علاقتهم بالدين هو ما يمثل لهم من وسيلة تحايل وكذب وتزييف الغاية منها الخلاص من الخدمة العسكرية.

والآن وقد غدا الدين من أفضل وسائل الارتزاق، لم ينزع أحدهم العمامة حتى مع إلغاء قانون الخدمة الإلزامية في العراق بعد الاحتلال، لأنهم اكتشفوا على ما يبدو أن امتهان الدين قد يوفر لهم حياة رفاهية لا يمكن أن يحققوها في مجالات الحياة الأخرى، مع تدني قدراتهم العقلية والمعرفية، وقصورهم العقلي وتدني مستويات الذكاء عندهم، لذلك نراهم يلجئون إلى متابعة ما هو متدني وتافه من الكتب التجارية المكتوبة بلغة ومنهج خرافي مبسط يعتمد اختلاق القصص الخرافية الأقرب للهلاوس عن كرامات الأئمة ومكانتهم قد يصل بعض هذه الروايات حد الشرك دون مراعاة أو فهم أن مكانة آل البيت يفترض أنها بُنيت على أساس تمسكهم بالشريعة وإيمانهم المطلق بالخالق وقدراته، وليس منافسته مكانته أو عرشه.

علاقتهم بالدين محصورة بالمؤسسة الدينية التي منحتهم هذه الفرصة لتخلصهم من متاعب الخدمة العسكرية وتوفير مستوى من العيش ما كان يمكن أن تتوفر لهم لولا هذه الفرصة التي قدمتها المؤسسة الدينية الطائفية لهم، فلا علاقة لهم بالإسلام كدين هم لا يفهموا منه إلا بحدود ما تراه الأدبيات الطائفية، لذلك هم طائفيين ليس إيمانًا وعقلاً أو تمسكًا بالطائفة أو تفضيلاً لها على غيرها من الطوائف جاءت نتيجة مقارنة عقلية أو معرفية بين المدارس الفقهية المختلفة، بل هم يتحزبون ويتعصبون للطائفة كمصدر للعيش والرزق والرفاهية حتى، أي أنه موقف دفاع عن مصالح شخصية مرتبطة مصيريًا بالوضع الطائفي.

لنأخذ مثلاً أكثر شخصيتين شهرة بين رجال الدين الشيعة، عمار الحكيم، ومقتدى الصدر، ولنتابع ما الذي قدماه للدين أو الإسلام عمومًا ما يمكن أن يمنحهم ما يعيشونه الآن من امتيازات وأموال ومكانة اجتماعية تؤهلهم للتدخل بالشؤون العامة للعراقيين، لن يجد أي باحث أو مدقق في تاريخ حياتهم أو سيرهم ما يمكن أن يمثل خدمة للدين أو حتى الطائفة بما يستحق بالمقابل التمتع بكل هذه الامتيازات التي كسبوها، علاقتهم بالدين تُختزل في أنهم أبناء أو أحفاد

مراجع سابقين، مع أن الخالق علمنا من خلال كتابه الكريم أن الدين والإيمان لا يورث حتى لأبناء الأنبياء، وابن نوح خير مثال، ولا يختلف عندهما دور العِمامة كونها وسيلة نصب واحتيال على القوانين، فعمار لبس العمامة ليتهرب من الخدمة العسكرية الإلزامية في إيران كمواطن إيراني، كما تثبت وثائق سيرته ذلك، ولا يختلف موقف مقتدى كمواطن عراقي عن ذلك.

مقارنة بأجيال رجال الدين في فترات ما قبل منتصف السبعينات والثمانينات، تتسع الهوة ما بين المجموعتين إلى حد يصعب معها المقارنة، فما عرفناه من جيل ما قبل سقط المتاع هذا الذي لبس العمامة إما هروبًا من الخدمة العسكرية أو طلبًا للعيش، نجد أن المعمم من جيل رجال الدين السابقين على فترة العهر والتخريب الديني هذه يحترم عمامته وزيه، إن لم يكن بمعرفته وعلمه فبإخلاقه وسلوكه يفرض احترامه على الناس.

استفاد بعضهم من فرصة تأسيس كلية الفقه ليلتحق بها لبرمجة أفكاره وقراءاته ومعرفته، تابع البعض دراساته العليا، كما هو الشيخ الدكتور أحمد الوائلي والسيد الدكتور مصطفى جمال الدين، راح البعض الآخر يبرمج قراءاته وأفكاره ذاتيًا، فكتبوا بحوثًا مهمة في التاريخ والفقه والتحقيق، كتب مثلاً الشيخ أسد حيدر بحثه المشهور بالفقه المقارن "الإمام الصادق والمذاهب الأربعة"، ما يحتاج معه المراجع الذين عرفناهم من أبو الحسن الأصفهاني إلى السستاني مرورًا بمحسن الحكيم والخوئي، إلى عمر يعادل ما عاشوه ليكتبوا مثله أو حتى ليفهموا محتواه، مع ذلك ظل الرجل يبتعد عن أي من ألقاب النصب والاحتيال، ويرفض بل يحتج أن يلقب بأكثر من علامة، لا آية الله ولا حجته ولا حجة الإسلام.

اخترع أو صَنع سقط المتاع هذا ألقابًا ما أنزل الله بها من سلطان ليضفوا على أنفسهم معاني من القدسية والأبهة والمعرفة يغطوا بها جهلهم وتخلفهم، فصرنا

نسمع بألقاب مثل (حجة الله)، (حجة الإسلام والمسلمين)، (آية الله) وأضافوا عليها العظمى، يعني هناك آيات صغرى أيضًا.

تسافلت حتى درجات الاجتهاد، التي يبدو أصابتها عدوى الدكتوراة المزيفة التي صارت شائعة في السنوات الأخيرة، إلى حد أن يتجرأ من لا يستطيع أن يركب جملة مفيدة باللغة العربية، أمثال بشير الأفغاني والسستاني وغيرهم من الإدعاء بالاجتهاد والمرجعية، مقابل ما رأيناه من بحوث قيمة تخضع للشروط المنهجية لمواصفات البحث العلمي، كما أبدع بذلك السيد محمد باقر الصدر.

تمسك سقط المتاع هذا بقراءة كتب الخرافة والدجل، راحوا يروجونها على أنها العلم، وتحول معهم تراث التشيع إلى قصص عن المهدي المنتظر المهندس الذي يُصلح الطائرات المعطوبة وهي في الجو، ويدعي الآخر أنه يرى السيدة فاطمة الزهراء تختبئ وراء نخلة تراقب مجالسه لتسجل أسماء من سيبكي على الحسين ومن لا يبكي لتضيفها إلى سجله فيدخل الجنة أو النار، وقصة أخرى عن هذا القبطان السيخي الذي لا يسافر على ظهر سفينته من البصرة إلى الهند إلا بعد أن يأخذ معه مجموعة من (ترب الصلاة)، ليهدأ بها البحر ويسكن العواصف التي تهب عليه.

وقصص عن أحلام تأتي بها السيدة الزهراء لتشكو عند أحدهم من الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، أو لتبلغ الآخر سرًا أو معرفة أو تعويذة لمعالجة كل الأمراض، وغيرها من غرائب القصص التي لا يمكن أن يقبلها ويرويها صاحب عقل سليم، يتشدق بها هؤلاء النصابين ليخدعوا الجهال والمتخلفين أنهم وصلوا إلى درجة من العلم والتقوى ما يجعل الأئمة يظهرون من قبورهم إعجابًا وسحرًا، ليتسابقون في التزلف ومدح هذا النصاب أو ذاك، ويظهر المهدي المنتظر من غيبته ليروي لأحدهم خرافة أو حديث زائف.

إنهم يسفهون تراث التشيع والأئمة والدين بكذبهم وخرافاتهم ودجلهم، تغدو الطائفية عند عديمي الضمير والأخلاق من هؤلاء الدجالين سلاح يتمسكون به للدفاع عن ما حصلوا عليه من امتيازات ومتع الدنيا.

لذلك ومقارنة بجماعات رجال الدين من الأجيال القديمة الذين نجدهم في وعظهم أبعد ما يكونوا عن التحريض الطائفي دون أن يتخلوا عن ولائهم الصادق لآل البيت، آداتهم الحجة والدلالة المنطقية والعقلية، بل هم من دُعاة الوحدة والتقارب الإسلامي، نجد سقط المتاع من النصابين الجدد الذين اتخذوا من العمامة واللحية والمسبحة عدة لنصبهم واحتيالهم، يندفعون بالترويج للطائفية والحفز على التعصب الطائفي.

بالنسبة للسُّنة وملاحظتي قد تنطبق على الوضع في العراق، غير متأكد من غيره من البلدان العربية، رغم أني اعتقد أن الأمر لا يختلف كثيرًا.. ففي العراق، هناك نظام في القبول في الكليات المختلفة يستند للمعدل العام للطالب في المرحلة الثانوية، وتتدرج المعدلات من الطب والصيدلة والهندسة إلى الحقوق والاقتصاد والسياسة وغيرها من الفروع، ما حصل في سنوات السبعينات والثمانينات وقد اشتدت المنافسة بين الطلاب مع تكاثر أعدادهم، بدأت الجامعات لا تتقبل أصحاب المعدلات الأقل من الستين بالمئة، ولم يعد للطالب ذي المعدل المتدني، من فرصة أخرى، إما ترك متابعة الدراسة، أو السفر للدراسة على حسابه الخاص في الخارج، أو القبول بأداء الخدمة العسكرية ومتابعة حياته بعيدًا عن العلم والمعرفة..

فقط كلية الشريعة بقيت مفتوحة أمام المعدلات القليلة، فكانت تجمعًا للفاشلين أو محدودي الذكاء ممن لم يتمكنوا من حيازة المعدل المطلوب لدخول الكلية التي يرغبون أو من تلك التي يمكن أن تؤهلهم لمستقبل مهني أو اجتماعي أفضل، ويغدو الدين بالنسبة لهم مجرد وسيلة عيش، كما كان وسيلة لتخلصهم من متاعب الخدمة العسكرية.

فلا غرابة أن نجد بعضهم وهو يعرف أنه ما كان له أن يدخل الشريعة لولا خيبته، لذلك يعوض مشاعر الدونية التي تتحكم في دوافعه بالتكابر والتظاهر بأنه يمتلك الحقيقة المطلقة، متظاهرًا بالإيحاء بأنه على علاقة مباشرة بالخالق تميزه عن الآخرين، فنرى منهم من يدعي أنه رأى الملائكة راكبة على ظهور جياد بيضاء تقاتل مع المتمردين في سوريا، وهذا يدعي أن النبي خصه بالزيارة ليبلغه رسالة ما متخيلاً نفسه أو يريد أن يصورها بأنها على درجة من التقى والورع تقترب من حالة النبوة التي يوحي لها، لكنه يستبدل جبرائيل بالنبي.

والتمسك بالإدعاء بالقرب من الخالق من خلال الإدعاء برؤية النبي في الحلم يستبدلها رجال الدين الشيعة باللقاء بالحلم بالإمام المنتظر، ظاهرة لا يمكن تفسيرها إلا بالكذب والنصب والتحايل على الله ونبيه وآل بيته، لمخادعة السامع أو التابع والمريد، والكذب والتحايل بهذه الحالة يعكس حالة من الدونية تنتفي فيها المفاهيم الأخلاقية الإنسانية المعروفة فهي حالة سقوط أخلاقي، أو هي حالة من حالات الهلاوس التي تشير إلى مستوى مرضي من الانفصام أو الشيزوفرينيا، يطلق عليهم سيد قطب في كتابه "معركة الاستعمار والرأسمالية" صفة المشايخ والدراويش[1]، "فهؤلاء رجال الدين أبعد خلق الله عن أن يمثلوا فكرته، ويرسموا صورته؛ لا بثقافتهم ولا بسلوكهم ولا حتى بزيهم وهيئتهم"، فهم بالغالب موظفون واجبهم الترويج لسياسة الحاكم وتسويغ ممارساته مهما كانت بعيدة عن الدين بإضفاء الشرعية عليها.

لا شك أن هناك حالات شاذة من العلماء الأفاضل الذين يخشون الله ويتقونه، منهم من واصل دراساته العليا لنيل الدكتوراة، ترى هؤلاء المبدعين في دراساتهم هم الأبعد عن الطائفية والأكثر ارتباطًا بالموقف الوطني وتطلعات شعوبهم، كما هو الدكتور الشيخ حارث الضاري، والدكتور الشيخ أحمد

---

١ – (ص: ٦٩) ويصفهم في الصفحة ٦٣.

الكبيسي وغيرهم ممن لا تردني أسمائهم الآن ممن ارتقى ولاءه الوطني على انتماءه الطائفي، ولو أنهما لم يسلما من تهمة الطائفية، الاتهام بالطائفية هنا قد لا يكون أكثر من حالة إسقاط سيكولوجي أو حالة عزو، أي أتهم الآخر بما عندي.

من رصد ومتابعة سلوكيات رجال الدين الجدد من الطائفتين نلاحظ ما يلي:

١: إن تدني مستويات الذكاء التي تحكمهم وتحد من قدرتهم على الإبداع والتجديد، تجعلهم يتهربون بقراءة ما هو تافه ومتدني من كتب الأخبار أو الفقه المبسط التي كان قد كتبها من هم بمستوياتهم، لذلك لم نسمع منهم مناقشة أي من موضوعات الحياة المهمة والحساسة للمجتمع، مثل الدعوة للاستقلال الاقتصادي والتوقف عن التبعية للخارج (عالم الكفار) في استيراد كل مقومات الحياة حتى البسيطة منها، العقال والدشداشة أو حتى النعال والحذاء ناهيك عن بقية الصناعات، إلى المواد الغذائية الأولية كالخبز واللحوم والخضروات والفواكه، وكأنهم يعيشون بعزلة عن الحياة والواقع من حولهم، فيعمدون لإثارة انتباه السامع أو المريد من خلال دغدغة الغرائز الشاذة في نفسه وتبريرها، كالفتاوى الخاصة ببول البعير ونكاح الوداع وإرضاع الكبير، وتحريم جلوس البنت بمفردها مع أبيها وغيرها من التفاهات الثانوية التي لا صلة لها بالحياة العامة للمسلم، وما يعيشه من حالة تخلف تجعله يقف خارج التاريخ وحركة التطور البشري.

٢: إن تدني مستويات ذكائهم التي تحرمهم من القدرة على الإبداع، تعيقهم حتى من الوصول للقدرة على استنباط الحكم الشرعي المناسب، وهم يدركون طبيعة عجزهم ومحدودية تفكيرهم لذلك نراهم عند الضرورة والاضطرار يلجئون إلى استنباط أحكامهم من التاريخ أو السلف كما يسمونه، فيعالجوا مشكلات عصرية بأحكام مر عليها أكثر من ألف عام، دون الأخذ بالحسبان تطورات العصر التي

يعيشها المجتمع الإنساني، والتغيرات الكبيرة التي فرضها التقدم التكنولوجي على الحياة، ولعل قضية المرأة والمطالبة بعودتها إلى المنزل واعتبارها عورة لا يصح حتى أن تسير في الشارع بمفردها، أي حرمان المجتمع من نصف تعداده، بل إلغاء دور الأم التربوي من خلال حرمانها من المعرفة والتعلم، ما ينعكس بالسقوط على النصف الآخر، أولئك الرجال الذين تربيهم هذه المرأة المراد لها أن تتحول إلى مجرد بضاعة لقضاء حاجة الرجل في الفراش، دليل على فشلهم في حل المشكلات الجنسية للشباب، من خلال الدعوة لتخفيض المهور أو بناء المؤسسات الخدمية التي تيسر الزواج وتطور بنى العائلة ورعاية احتياجاتها، إعطاء المرأة الحق في اختيار زوجها كما هو معروف في أحكام الشريعة.

٣: إنهم ورغم كل ما يتمتعون به من امتيازات، ومكانة اجتماعية لا شك أنها لا تطفئ مشاعر الإحساس بالفشل والدونية عندهم، ومشاعر الفشل تشكل عادة أساس لمشاعر الحسد والحقد والكراهية من أولئك الناجحين ممن شق طريقه الاعتيادية في الحياة دون أن يحتاج للكذب والنصب والاحتيال باسم الدين، كما أن من خصائص الفشل أن الفاشل يلقي اللوم دائمًا على الظروف أو الناس من حوله، لذلك نجد بوضوح إمارات الحقد على المجتمع والعداء له والرغبة بتدميره قصاصًا منه لأنه بتصوراتهم كان السبب في ما يعيشونه من ضغوطات الإحساس بالدونية والفشل.

وليس ما نراه من خطب ووعظ وحث على استنهاض التعصب الطائفي إلا شكلاً من أشكال العداء للمجتمع والرغبة في الانتقام منه بجره إلى معارك ونزاعات دموية تقوم على أساس إدعاءات لا تصمد أمام العقل والمنطق، وهم لا يتورعوا عن إيذاء الغير بأي أسلوب وأية فرصة تتوفر لهم، لا يؤتمنون على شيء، فالكراهية والحقد هي من أقوى المشاعر التي تتحكم بهم.

٤: كما قلنا إن علاقتهم بالدين لم تأتِ من إيمان عميق ورغبة في تجسيد هذا الإيمان بالعمل على تعميمه ونشره بين المريدين، بل الدين بالنسبة لهم وسيلة عيش والحصول أو كسب متع الدنيا، كل المتع بكل الطرق والوسائل، لذلك تغدو الفتاوى الشاذة والغريبة أفضل الطرق لمن هو مستعجل منهم للشهرة والكسب فيأتي بالفتاوى المنكرة، ليظهر اسمه ويزداد أجره للتسريع في حيازته الملذات التي حُرم منها قياسًا لذوي المهن الناجحة، فكانت فتاوى بول البعير ونكاح الوداع ونكاح الجهاد وغيرها والترويج للمتعة، وإرضاع الكبير والدعوة لتحجب الشاب الجميل، وجواز استخدام المرأة للجزر لإشباع رغبتها وغيرها، مما هو شاذ وتافه من الموضوعات، الفتاوى التي تعكس تركيبة سيكولوجية وبني لا شعورية مريضة.

٥: الدنيا وملذاتها عندما تغدو هي الأصل في نشاط الإنسان، يصبح إرضاء إرادة المانح لهذه اللذات أو الممول أو المصدر هي العليا لا إرادة الله، لذلك نجد أن كل دولة أو مصدر مالي أو موضوع قوة له فقهائه ورجال دينه الذين يبررون له كل مفاسده على أنها جزء من إرادة إلهية وتحقيقًا لشرع الله، وهم مختلفون رغم أنهم جميعًا يستندون، كما يدعون لكتاب الله وشريعته وسيرة السلف الصالح، إلا أنه تفرقهم المصالح والتبعية لمصادر الرزق والقوة.

ويصبح الدين لعبة، والفتوى وسيلة للحفاظ على النظام في دولة المفتي أو الشيخ، فطاعة ولي الأمر حتى لو كان جائرًا وظالمًا؛ واجبة، والخروج على إرادة الحاكم خروجًا على إرادة الله في بلده، لكن تنقلب الآية ويغدو الخروج على الحاكم في دولة على خلاف مع نظام دولة الشيخ واجب فرض، والجهاد فريضة إسلامية يدعو الناس ألا يفوتوا الفرصة في نيل الشهادة والموت من أجل الدين لحيازة ملذات الجنة من حور العين وأنهار الخمر، لكنه يتشبث بمكانه الآمن مستغنيًا هو وأولاده عن كسب ثواب الجهاد وما يتبعه من ملذات الجنة، مكتفيًا بتواضع بما عنده من متع الدنيا!

كل شيء ممكن في دين إخوان الشياطين هؤلاء ، يتقبل أي شيء وكل المتناقضات ، فهم مفوضون من الرب بالقول بالشيء وعكسه ؛ طالما يخدم مصالحهم وتطلعهم لحيازة المزيد من الامتيازات ، ورضى أربابهم وحكامهم عليهم ، فما هو محرم على الآخرين حلال عليهم والعكس صحيح أيضًا ، وفقًا لمتطلبات الحاجة والضرورة.

تلك خصائص غالبية رجال الدين المسلمين من كل الطوائف ، تحاشا الكاتب ذكر الأمثلة الواقعية الكثيرة للدلالة على صحة وجهة نظره منعًا للإطالة ، وليس فيها ما عاد خافيًا بعد انتشار استخدام اليوتيوب والفيس بوك وغيرها من وسائل التواصل الاجتماعي.

إنهم رجال دين إسلام الصهيونية المعولمة ، طول لحيتك ، وامسك مسبحة وتظاهر بالتدين واعمل بعدها ما شئت ؛ اسرق ، اكذب ، ازني ، بل حتى قود ، دمر البلدان وخربها ، تعامل مع المخابرات الأجنبية ، فكله دين ، ومن يعترض فأولئك هم الكفار الخارجين على الدين الذين يستحقوا الذبح.

تلك هي شريحة النخبة التي يخضع لها المجتمع العربي اليوم والتي تروج لها وسائل الإعلام المختلفة حتى تلك الملحدة والكافرة ، فنحن الآن واقعين تحت تأثير وقيادة جهالنا وأغبيائنا ومحدودي الذكاء ، والجماعات الحاقدة على الإنسانية والمجتمع ، وهم أصلاً من فاقدي الشعور بالمسؤولية الدينية والوطنية والأخلاقية ، فلنتوقع منهم كل شيء ، بما لا يؤتيه حتى المنحرف أخلاقيًا ، لعل المنحرف يخاف من غضبة المجتمع ، أما هؤلاء فهم يمتلكون القدرة باسم الله ونيابة عنه أن يخطئوا المجتمع ويتهموه بالانحراف إن لم يقبل انحرافاتهم وشذوذهم وسقوطهم وفشلهم في الحياة العامة.